أهمية نشر الوعي الوثائقي

فلا تاريخ بدون وثائق

للأستاذ عبدالله حمد الحقيل

للوثائق للوثائق دور كبير في حفظ التراث وكتابة التاريخ الوطني في شتى فروعه، وفي العصر الحديث أصبحت الوثائق علماً يدرس؛ فالعلوم الوثائقية والأرشيفية تحتل اليوم مكانة رفيعة...

إذن ما الوثيقة: وما التوثيق في اللغة؟

يقال .. وثق الأمر، أي أحكمه وأتقنه ودعمه، ووثق المرء إذا قال فيه إنه ثقة .. واصطلاحاً ـ جمع الوثائق والمستندات ونقدها وتمحيصها وتقديمها إلى الناس في صورة

أقرب ماتكون إلى الأصل الذي صدر عن صاحبها الأول.

والوثائق التي خلفها السلف على مدى عصور التاريخ قسمان، على حد قول الأستاذ عبد المجيد عابدين في بحثه «التوثيق تاريخه وأدواته». القسم الأول يشتمل على الوثائق التي وضعت لاحتياج الناس إليها في ذلك العصر كالسجلات الرسمية والوثائق التاريخية، والأبنية والقبور والنقود والألبسة والأدوات والفنون.

والقسم الثاني: يشتمل على الوثائق التي وضعت لإخبار الأجيال الآتية بما فعلته الأجيال الغابرة، وتنقسم بدورها إلى شفاهية كالروايات والملاحم والقصص والأساطير والأقوال المأثورة والأمثال الجارية، التي تدل على تجارب حياتية سابقة، وإلى كتابية أو يدوية، كالتصاوير التي تمثل المشاهد التاريخية أو بعض الحفلات الدينية أو بعض المعارك الحربية، وما فيها من أسلحة وملابس وأدوات حرب أو بعض الأعمال والكتابات والنقوش المحفورة على الأبنية ... الخ.

فالوثيقة إذن تحمل مدلولاً أوسع بكثير من النص المخطوط أو الخبر المروي، وتوثيقها يحتاج إلى خبرات متنوعة واختصاصات دقيقة التوثيق.

فالذي يوثق قطعة من النقود أو وساماً من الأوسمة، يتخذ من الوسائل ويحمل من الخبرات ما يختلف به عن موثق النصوص والروايات، وكلاهما يختلف في وسائله وخبراته عن موثق النقوش المحفورة على الحجارة والأبنية وشواهد القبور؛ إلا أن الغاية من التوثيق واحدة، وهي تقديم الوثيقة محققة خالية من كل دس وتزوير، صحيحة النسب إلى عصرها وصاحبها.

ولعل توثيق النصوص والروايات يحتل في العلوم الإنسانية مكانة أكبر مما يحتله توثيق

الأنواع الأخرى، ومع ذلك يجب ألا نقلل من قيمة الأنواع الأخرى وبخاصة بالنسبة لمؤرخي الأحداث التاريخية واللغات ومجتمعاتها القديمة والفنون.

وتوثيق النصوص والروايات، قديم عند علماء المسلمين، بدأه رواة الحديث النبوي، فحددوا ضوابطه، ودققوا في طلب البينات التي تثبت صحة النص أو الخبر المروي. وقد اعتمدوا على البينة الظرفية أو بينة القرائن والملابسات.

ولما تفرعت العلوم الإنسانية، واستقل كل علم منها بكيانه، حذا اللغويون والمؤرخون والأدباء حذو رواة الحديث، فرووا أخبارهم وأشعارهم بأسانيدها ... ولكن مع مرور الزمن وعدم دقة المدققين، دخل التحريف والانتحال في بعض الأشعار والأخبار التي حفظتها لنا المصادر القديمة، المخطوطة والمطبوعة .. هذا بالإضافة إلى ماتركه النساخ والوراقون من عبث بالنصوص القديمة، مما جعل مهمة الموثقين والباحثين إزاء هذه النصوص ليست بالأمر اليسير..

ويبدو أن علماء أوروبا لم يضعوا فنّ التوثيق موضع عنايتهم إلا في عصور متأخرة، عندما اتجهوا إلى تحديد مفاهيم العلوم وطرق دراستها. فنادى بعض مؤرخيهم بتطبيق منهج علمي على البحث التاريخي، يعتمد أساساً على الوثائق والمستندات. وهذا المنهج ينقسم إلى **التحليل التاريخي** وهذا المنهج يتطلب خبرة في اللغة والخطوط وأنواع الورق والأحبار، ومقارنات بين النسخ المتوافرة من نفس الوثيقة. ثم يعقب ذلك مرحلة البناء والتركيب ويسمى **التركيب التاريخي**، وهو لب البحث التاريخي، ولولاه لما بلغ المؤرخ غايته، وهذا يعتمد على تجميع عناصر التحليل المتفرقة ويرتبها وينسقها ويؤلف منها صوراً مشابهة قدر الإمكان للصورة التي وجدت في ذهن شاهد العيان.

المنهج التوثيقي:

ويتركز في تحليل الوثيقة، ومهمة الموثق تنتهي عادة عند هذا التحليل. وهذا المنهج يسمى أيضاً بالمنهج النقلي، وغايته توثيق النصوص والآثار، ويختص بالحياة الإنسانية الماضية. وكان لزاماً على المشتغلين بالعلوم الإنسانية أن يستعينوا بالوثائق للتعرف على ظواهر الحياة الماضية من سياسية واجتماعية ودينية وفنية وفكرية.

ولا غنى لدارسي هذه العلوم ـ ومن بينها اللغة والآداب ـ عن توثيق ما يصل إليهم عبر التاريخ من نصوص وآثار. (والنصوص قد تكون مسموعة بالنقل شفاهاً، أو مقروءة بالخط كالرسائل والتقارير والمخطوطات أو بالطباعة أو مصورة بالآلة أو منطوقة بالتسجيل الصوتي) وفي كل هذا ينبغي الاطمئنان إلى صحة المروي، من أي طريق وصل إلينا ومن هنا لا بد من توفر **أدوات التوثيق** وأهمها:

١ ـ الخبرة بالخطوط العربية والفارسية والتركية وأصولها وعلاماتها.
٢ ـ الكشف عن مواطن التزييف والتلف.
٣ ـ التنبه إلى النصوص المحرفة أو المصحفة.
٤ ـ التمييز بين مراتب النسخ المتوافرة.
٥ ـ القدرة على اكتشاف حدود التصرف في نص المؤلف.
٦ ـ الإحاطة بالمتن وموضوعه وفهم دقائقه وأساليبه.
٧ ـ الإحاطة بالمصادر والمظان التي تتعلق بموضوع النص الموثق.

مما سبق يتضح أن الموثق لابد أن يكون على علم واف بأشكال الخطوط وأنواعها من نسخ ورقعة وثلث وديواني وتيجاني وتعليق وما شابه ذلك، وعن الضبط والشكل

والإعراب والإملاء. وأن يكون الموثق على قدرة علمية تمكنه من المقارنة بين النسخ المتاحة حتى يكتشف مواطن التزييف والتلف. وأهم من ذلك كله أن يكون على علم بموضوع المتن المحقق أو المراد توثيقه، حتى يستطيع أن يفهم دقائقه وأساليبه المختلفة ويعلق على ما يستحق التعليق منها، وأن يكون من أصحاب الوقوف بالمصادر والمراجع وطريقة استخدام الفهارس التي تمكنه من اللجوء إلى المراجع أو المصادر التي يستوثق منها صحة ما يتبادر إلى ذهنه من شكوك أثناء عملية التوثيق هذه.

وهكذا يتبين دور الوثائق. ولقد قيل «لا تاريخ بدون وثائق» ومن هنا تطور علم الوثائق في العصر الحديث، وأسست له المعاهد التخصصية لإعداد الباحث المتمكن. وهناك خزائن الوثائق و المخطوطات الميكروفيلمية التي تحفظ تلك الوثائق و تجعلها ميسرة الاستخدام، بعد أن أصبحت في مأمن من التحريف أو الإتلاف أو الحريق ووضعها في مناخ مناسب من الحرارة والرطوبة، وأنشأت لها الدول المتقدمة حضارياً مراكز الترميم ومعامله المهيأة لترميم الوثائق التالفة أو القطع الأثرية التي أتى عليها الزمن.

فالوثيقة التي هي كل تسجيل بالحرف أو بالصورة أو بالأشرطة الممغنطة لكل عمل أو حدث من الأعمال الرسمية للدولة، أو من الأعمال التي قامت بها مؤسسات خاصة أو أفراد، والتي بدورها تشكل تسجيلاً حياً لمراحل الحياة التاريخية لهذه الدولة بكافة صور الحياة، وأشكالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية والفنية بحاجة إلى رعاية وتصنيف وتسجيل، حتى تكون في متناول الباحثين حينما يحتاجون إليها لإلقاء الضوء عليها، فربما تكون هذه الوثيقة سبباً لإنارة الطريق نحو الحقيقة أو على الأقل جزء من الحقيقة.

انطلاقاً من هذا المفهوم الشامل لكلمة وثيقة، نشعر بأن الوعي الوثائقي الذي بلغته

المؤسسات الوثائقية في الوطن العربي، لم يبلغ بعد المستوى العلمي الكافي الذي يوازي قيمة الكنوز التاريخية الثمنية، التي أورثنا إياها الآباء والأجداد. لقد مر زمن طويل على الأمة العربية وهي تعاني من نير الاستعمار بكافة أشكاله وصوره، ولكن طالما قدر لهذه الأمة التحرر من هذا النير، وأفاء الله عليها بنعمة التحرر والانطلاق، فإننا ندعو جامعاتنا إلى افتتاح مراكز وأقسام للدراسات الوثائقية، لإعداد الخبراء والمتخصصين للعمل على تصنيف وتنظيم ورعاية هذه الوثائق والعناية بها، وترميمها من الآفات واحتمالات الحريق، وفك رموزها وحل غوامضها؛ لتبقى سنداً للباحثين عن الحقيقة والدارسين لها، لما تقدمه لهم وتمدهم به من المعلومات المفيدة التي يمكن أن توصلهم إلى تلك الحقيقة.

* * *

* قال حكيم لابنه :

من نقل لك، فقد نقل عنك، ومن شهد لك، فقد شهد عليك، ومن تجرأ لك، تجرأ عليك، لا تقبل الخبر من كذاب، ولو أتاك بحديث عجاب، من أكثر مقاله سئم، ومن أكثر سؤاله حرم، لا تقولن مراً، ولا تفعلن شراً.